دراسة نصّ لأبي الحسن العامري :

تَوَلّد الاختلافات في باب الديانات

أو

البواعث النفسية الفردية للخروج عن الايديولوجية

بقلم د / عبد المعطي سويد

- مقدمة : الخلفية القرآنية للنص ٠
- هوية أبي الحسن العامري ٠
- موضوع النص ٠
- النص ٠
- تعليقـات ٠
- تفكيرنا حول النص ٠
- نتيجة عامة ٠

دراسة نص لأبي الحسن العامري :

تـوَلّد الاختلافات في باب الديانات

أو

البواعث النفسية الفردية للخروج عن الايديولوجية

بقلم د / عبد المعطي سويد

مقدمـة :

يقدم لنا القرآن الكريم أطروحة المشركين الذين رفضوا تلبية دعوة محمد منذ بدايتها في عدد من الآيات نلمح من خلالها موقف المشركين المرتكز على حب الحياة الدنيا أو العاجلة وقد كان هو البعد الوحيد في عقيدتهم آنذاك ، وذلك في مقابل الحياة الآجلة ، وهو البعد الآخر الذي جاء به القرآن في دعوته الجديدة :

« وقال ابراهيم لقومه انما اتخذتم من دون الله أوثانا بينكم في الحياة الدنيا ، ثم يوم القيامة يكفّر بعضكم بعضا ، ويلعن بعضكم بعضا ، ومأواكم النار وما لكم من ناصرين » .

(القرآن : سورة العنكبوت الآية ٢٦)

« بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى » .

(القرآن : سورة الأعلى الآية ١٦)

« كلاّ بل تحبون الحياة الآجلة وتذَرون الحياة الآجلة » .

(القرآن : سورة القيامة الآية ٢١)

« ان هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا » .

(القرآن : سورة الدهر الآية ٢٧)

رأينا أن نرجع الى النص القرآني لأنه يحدد الاطار العام لرفض الانسان الديانة الجديدة ، أي أنه أشار الى أن الحياة العاجلة « تغري » الانسان بأن ينصرف عن عقيدة تلزمه ازاء حياة أخرى ليس لها آثارها العاجلة في الواقع الارضي المحسوس ، ومن هنا تتولد لدى الانسان رغبة لرفض الديانة ، أو الخروج عنا ، وهي رغبة كما سنرى ، لدى العامري ، فردية . تتطور هذه الرغبة من موقف سلبي الى محاولة صياغة هذا الرفض بلغة عَقَدية ، تلبيه في ذلك نزعة في حب « الحياة الآنية » ، والواقع المحسوس ، وهذه النزعة متعددة الجوانب في نفس الفرد ، فهي كالغرور ، والرغبة في الظهور الفردي ، أو المصلحةالشخصية وقد تصاغ هذه المصلحة الفردية بأسلوب ايديولوجي اجتماعي .

شخص أبو حسن العامري :

هو أبو الحسن محمد بن أبي ذر يوسف العامري الينسابوري من فلاسفة الاسلام في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) .

كان معروفا في زمانه . بل كان من أعلام عصره كما يقول أبو حيان التوحيدي في « المقابسات » وقد وضعه الشهرستاني جنبا الى جنب مع

كبار فلاسفة الاسلام ، أمثال الكندي ، والفارابي ، وابن سينا ، وتحدث عنه ، مسكويه ، في « الحكمة الخالدة » وأبي المعالي في « بيان الأديان » والكلاباذي في « التعرف لمذهب أهل التصوف » توفي سنة ٣٢٢ هـ — ٩٣٣ ميلادية[١] .

موضوع النص :

تحديد الجهات التي بحسبها تتولد الاختلافات في باب الديانات . يقع هذا النص في خاتمة كتاب العامري ، في الفصل المعقود حول : القول في الشبهات التي يتسلق بها المعاندون للاسلام .

النص :

« الجهات التي بحسبها تتولد الاختلافات في باب الديانات »

يقول العامري :

« ونحن جدراء بأن نذكر الجهات التي بحسبها تتولد الاختلافات في باب الديانات وان كانت موافقة للحق ، فنقول : ان عامتها تفتن الى جهات أربع :

احداهـا :

أن يعجب المتدين بعقله ، ويغتر بذكائه ، فيركّب نوعا من المقاييس الفاسدة قبل أحكام المعرفة بمقدماته ، فينتج نتيجة كاذبة ، وهو يخالها

---

١ ـ الدكتور أحمد عبد الحميد غراب : مقدمة وتحقيق كتاب « الاعلام بمناقب الاسلام » لأبي الحسن العامري . دار الكاتب العربي للطباعة والنشر . القاهرة ١٣٨٧ ـ ١٩٦٧ ، ص ٥ ـ ٧

صادقة ، فيعقدها ديناً ويدعو الناس اليه جهلا ، فتعم البلوى وتُعْوى بسكانه الخليقة[٢] .

والثانية :

أن يولع الانسان نفسه بالاغراب ، والتعمق ، ويستهتر باستثاره معنى بديع لم تنتجه له خواطر الناس ، وقلما يبالي تنكب الجادة شغفا بأن يسلك طريقه يصير فيها قدوة ، أو يثير نادرة يحكم له باصابتها على بُعد الغور ، ولطف الروية ، فيوطد لنفسه الذكر والسمعة[٣] .

الثالثة :

أن يكون قصد الانسان عناد جميع ما يسمع من الأقوال الصادقة ، والمذاهب الحقيقية ، وأن يتتبع الآراء المسترذلة التي تنخدع بها طبقات العامة ، اذ ليس شيء عند الدهاء أروج من المذهب المستضعف ، والرأي المدخول .

---

٢ ـ يقول الامام أبو حامد الغزالي في الفصل المتعلق « بيان السبب في رواج حيلتهم (الباطنيون) وانتشار دعوتهم .. » ما يلي : الصنف الخامس طائفة سلكوا طرق النظر ولم يستكملوا فيه رتبة الاستقلال ، وان كانوا قد ترقوا عن رتبة الجهال ، فهم أبدا متشوقون الى التكاسل والتغافل واظهار التفطن لدرك أمور تتخيل العامة بعدها وينفرون عنها لا سيما اذا نسب الشيء الى مشهور بالفضل ...

٣ ـ يقول الغزالي : « وطائفة جبلوا على حب التمييز عن العامة والتخصص عنهم ترفعا عن مشابهتهم ، وتشرفا بالتحيز الى فئة خاصة تزعم أنها مطلعة على الحقائق وأن كافة الخلق في جهالتهم كالحمر المستنفرة والبهائم المسيبة ، وهذا هو الداء العضال المستولي على الاذكياء فضلا عن الجهال ، وكل ذلك حب للنادر الغريب ونفرة عن الشائع المستفيض ... » .

(فضائح الباطنية . الامام الغزالي . تحقيق د. بدوي ، القاهرة ١٩٦٤ ص ٣٣ ـ ٣٦) .

والرابعة :

أن يتعمد تزييف الدين ، وتوهين أساسه ، اما لتعصب ملكي أو لتعصب نسبي أو لسوس الخلاعة ، أو لايثار طرق المجانة ، فهو يجتهد في الصاق المعايب به بأخبار مزورة ، وينسبها الى أئمة أصحاب الحديث ، أو الى أحد رؤساء العامة ، فيوهم الضعفة من أهله أنها أساس الملة ، احتيالا منه للنكاية فيما أبغضه وأحب الانتقام منه .

فهذه الطرق للآفات المتواترة على الاديان والملـل . وليست هي المقصورة على دين الاسلام ، بل هي مشتملة على جميعها » .

(كتاب : الاعلام بمناقب الاسلام . لأبي الحسن محمد بن يوسف العامري . تحقيق ودراسة الدكتور : أحمد عبد الحميد غراب ، القاهرة ١٣٨٧ ـ ١٩٦٧ ، ص ١٩٤ ـ ١٩٥) .

تعليق :

يقول العامري : « ان كان العقل المختص بالجوهر الانسي هو أن يعرف الحق ، ويعمل بما يوافق الحق فمن الواجب أن يكون أكمـل الناس أغزرهم عرفانا للحق ، وأقدرهم على العمل بما يوافق الحق »[٤] يضع العامري العقل معيارا للحكم والمقارنة[٥] ، والعقل أمر ثابت ، وهو يرى أن الاسلام بالمقارنة الى الاديان الاخرى التي عقد بينها المقارنة ، يستجيب بكل ما اختص به من المناقب العلية لنداء الواقع والعقل ، وهو

---

٤ ـ أبو الحسن العامري : الاعلام بمناقب الاسلام . ص ٧٧ .

٥ ـ عقد العامري مقارنة بين أديان ستة وهي : الاسلام ـ اليهوديـة ـ المسيحية ـ دين الصابئة ، الزرادشتية والاشراك .

بالتالي أفضل الديانات ، وذلك لقيامه ـ أي الاسلام ـ على الاستجابة الروحية والمادية التي يبحث عنها الانسان .

فالنص الذي ذكرناه يُظهرنا على أن الخروج عن الدين ، أو الايديولوجية ، هو موقف فردي ، وهو موقف « لا عقلي » فالانسان في خروجه هذا انما يلبي ميوله الخاصة اللاعقلية ، ومنازعه المرتبطة بكيانه الفردي الخاص المحدود :

١ ـ البحث عن الاعجاب ، والغرور بالذكاء الفردي ، اختلاق مقدمات فاسدة والوصول الى نتائج فاسدة ، مع توهم هذا الفرد بأنها صادقة ، ومن ثم يعظم هذا الامر لدرجة أن « المارق » يعتقد بأنه قد أوجد دينا جديدا ، ويأخذ بدعوة الناس اليه ، ومن ثم تحصل البلوى ، وتغوى بمكانه الخليقة .

٢ ـ الانسان أيضا في اختلافه عن الدين فهو في حالة « ولع بالنفس » وفي حالة حب الاغراب والتجديد ، والتعمق ، وذلك بوضع صور بيانية براقة ، تحصل عبارات جديدة تثير الاحاسيس والمشاعر ، وهو في هذا يبحث عن اشادة الناس به على بعد الغور ، ثم يأتي بعد ذلك الشعور بالرغبة في الحصول على السمعة وحسن الذكر .

٣ ـ يرفض « المارق » الاقوال السائدة ، ويعاند في رفضه ، ويبحث عن الآراء التي يراها « العامري » مسترذلة ، وهي تخدع العامة (الجماهير) ، وتروج لديها .

٤ ـ يعمد « المارق » الى هدم العقيدة في أساسها ، أو من «الداخل» لأسباب أيضا مرتبطة بالفرد ذاته فهي اما : لتعصب سياسي ، أو لتعصب

نسبي (قومي) ، ووسائل هذا الموقف الاخير هي : الصاق المعايب ، (نشر الدعاية الكاذبة) ونشر التهم الاخلاقية ، والطعن بالاشخاص .

٥ ـ نشر الاخبار الكاذبة عن لسان الزعماء ، ويوهم بهذا الضعفه من أهله أنها من أساس الملة ، أي يعمل على اقناع الآخرين بأن مجموعة « الاكاذيب » هذه هي أساس المذهب هذا أو ذاك . وهو بهذا يرضي لديه نزعة الانتقام .

يبدو أن مشكلة الخروج عن الملة (المذهب) لدى العامري هو أمر فردي ، وهو موقف ضد العقل وغير موافق للحق ، لان الاسباب الداعية لهذا المروق ، هي (ميول ـ رغبات ـ ولع ـ تعصب) لقد أظهر العامري في تحليله لظاهرة « المروق » الجانب السلبي من القضية ، أو أنه بين لنا التمرد من جانب الفرد ، فالخروج عن الدين أو الايديولوجية ليس دائما بالضرورة رغبة في الحصول على الاعجاب ، والاغراب ، وهو ليس موقفا « فرديا » فقط ، فالفرد موجود في المجتمع ، ويربطه بالمجتمع علائق معقدة ، وقد يخرج الفرد عن دائرة الاعتقاد مجسدا مطامح مجموعة ما من أفراد مجتمعه وكذلك للخروج هذا أسباب اقتصادية ـ سياسية ـ اجتماعية ـ وعقائدية (كفساد العقيدة ذاتها) .

ثم ان العقل ذاته لدى العامري ، وهو المقياس للحكم على الاشياء ، خاضع بكل قواعده للتبدل والتغير ، وهو بهذا يتبدل مفهومه للعقيدة ذاتها ، والعقل ليس أمرا ساكنا مطابقا لكل واقع ، بل تتغير قيمه بتغير الواقع ، وبالتالي ما عده العامري « مروقا » في القرن الرابع الهجري ، ولا عقليا وغير مطابق لما في الاعيان ، يصبح في عصر آخر عقيدة ومذهبا ومطابقا لواقع آخر .

وربما يجيبنا من يدافع عن فكر العامري هذا ، بأن الملة (الدين)

أمر ثابت ، والوحي أمر لا يتغير فقد هبط مرة واحدة ، فما جاء به كان وسيبقى صحيحا ، ولكننا نتساءل فيما اذا كان الوحي ثابتا « كوحي » والواقع ثابت كثبات الوحي ذاته ؟

ان الميول والنوازع الفردية المحضة التي تدفع بالفرد للخروج عن ايديولوجية ما ، لا يكتب لها الاستمرار والبقاء ، في « ميول » تلبي رغبة « آنية » واذا استمرت هذه النوازع باحثة عن الاعجاب ، بالذات ، والغرور ، والولع ، والتعصب الخ .. فانها تضمحل مع اضمحلال الفرد ذاته .

تفكيرنا حول النص :

لقد علّمنا النص بأن الانسان « بفرديتـــه » وأنانيته قد يخضع « لنزوات » آنية ، عاجلة تدفع به الى « المروق » ورفض الايدلوجية ، وقد تعددت هذه « الجهات » لدى الانسان فهي بواعث داخلية في الفرد ذاته ، وقد تكون مشروعة ، في اطار هذا الفرد ، ولكنها لا يمكنها أن تكون أساسا في نقد ، أو رفض هذه الايدلوجية أو تلك عندما تغلف باطار اجتماعي . ويمكن لهذه النوازع الفردية اذا خالها شيء من الصفاء أن تنطلق من محدوديتها بزيد أو عمر ولأن تصبح أمرا عاما للجميع .

لم يستوعب ، كما نرى ، نص العامري المشكلة (مشكلة الخروج عن الملة) بكاملها ، بل أحاط بها من جانبها السيكلوجي الفردي السلبي، لان في الانسان بواعث وجهـات أخرى « غيرية » ليست من الولع ، والغرور ، بمكان ، تدفع بالفرد لاعادة النظر بهذه العقيدة أو تلك .

نتيجة عامة :

لا يزال النص معاصرا ، وهو ليس صفحة طويت من تراثنا القديم ، لاننا لا نعدم في الوقت الحاضر من وجود أفراد تدفع بهم النزوات ،

والنوازع والميول ، ومختلف أنواع التعصب ، للخروج عن عقيدة ما ، أو رفضها ، أو انكارها ، وهذا الموقف ليس بعيدا عما نسمعه الآن بالموقف النابع عن « المصلحة الفردية » .

وقد تدفع الكبرياء بأفراد كثيرين للاعتقاد بأنهم يرفضون هـذا المذهب أو ذاك لانهم وحدهم يملكون الحقيقة المطلقة ، وهم القادرون على تحطيم هذا المعتقد أو تلك الايديولوجية باحثين في هذا عن الامجاد الشخصية المحضة .

ومن ناحية ثانية ان للنص هذا أهمية عالمية أو انسانية عامة ، فهو ليس تحليلا محدودا لظاهرة المروق على مستوى الدين الاسلامي فقط ، بل يتجاوز العامري في ادراكه الى غـير الاسلام ، فالنوازع والرغبات والميول لا تدفع بالمسلم للخروج عن الاسلام ، وانما تدفع المؤمن بعقيدة أخرى غير الاسلام للمروق عن عقيدته ، فيقول في خاتمة النص :

« فهذه الطرق للآفات المتواترة على الاديان والملل ، وليست هي المقصودة على دين الاسلام ، بل هي مشتملة على جميعها » .

★ ★ ★